الأستاذة: بن سويكي

مادّة: قضايا نقديّة

المستوى: أدب حديث ومعاصر

*المحاضرة رقم05/ التّرجمة:

*تمهيد:

انتقلت مناهج النّقد المعاصر من العالم الغربيّ إلى العربيّ عن طريق التّرجمة، الّتي عدّت خير وسيلة لشحذ خطابنا النّقدي العربيّ بالوسائل والإجراءات الّتي تسعف الحوار مع النّصوص الأدبيّة الّتي أصبحت تتعالى عمّا أصبح مألوفا من قضايا النّقد الحديث، وإذا كان العجز باديا في خطابنا العربيّ النّقدي المعاصر، فمجيء التّرجمة عدّ كحلّ مناسب لتخفيف توتّر هذا الخطاب، فكلّنا يعلم أنّ الفكر الإنساني لم يتمثّل أبدا في جزيرة معزولة ولم يتطوّر عبر سجون اللّغات والأقاليم، وإنّما كان دائما يجد سبله لاختراق هذه الحواجز.

*01/دور المترجم:

في تحديد دور المترجم يرى "سعيد يقطين" أنّ المترجم يصلنا "بثقافة الآخر، وإبداعه في عالمنا الحالي، ويجعلنا من ثمّة نحقّق تفاعلا إيجابيّا مع العصر الحديث لو توفّرت الشّروط الضّرورية..." وتعدّ ترجمة أيّ منتج ثقافيّ؛ سواء كان مصطلحا أو كتابا أو منهجا فكريّا أو فلسفيا أو قصيدة بنقله إلى لغة وثقافة أخرى "يعين في أبسط صورة على الدّخول في علاقة مع تلك الثّقافة، تلك العلاقة يصفها البعض بأنّها "حوار" يقوم فيه المترجم بوظيفة الوسيط المنّسق الباحث عمّا هو أقرب وأدّق تحقيقا للتّفاهم والفائدة المشتركة، وهذه الرّؤية لدور المترجم هي الّتي تشيع في الكثير من الجهد التّرجمي."

وتبرز التّرجمة كوسيلة بين الشّعوب لتبادل الثّقافة والوصول إلى كنه علومها، "ففي الحرب العالميّة الثّانية برزت الضّرورة الملّحة لإيجاد مناهج سريعة ومجدّية لتعليم الجنود الأمريكيين اللّغات الأجنبيّة، كذلك أدّى تسارع تطوّر الاتّصالات الدّولية إلى ولادة اللّسانيات التّطبيقية في تعليم اللّغات الحيّة، وإلى ظهور التّرجمة الفوريّة." وكمثال بارز لعملية المترجم المبدع يقف أحد النّقاد شاهدا على الجهد الخلّاق الّذي بدله "الغذّامي" فيقول: "إنّ وقفة الغذّامي عند رولان بارت كانت وقفة تمثّل وتعريب، وإيجاد سياق جديد لنصوص مقتبسة من سيّاقات أخرى، ولكّنها تصلح لتكون لها مرجعيّة في السّياق الجديد، ويمكن استخدامها انطلاقا من هذه المرجعيّة الجديدة."

ولا تتوقّف التّرجمة عند معرفة اللّغة المنقول إليها فقط و"لا يجب على المترجم الاكتفاء بكونه لغويا جيّدا، بل يجب عليه أن يكون عالما ممتازا بالأجناس، فلا يطلب منه معرفة كلّ ما يخصّ اللّغة الّتي يترجمها فقط، ولكن أيضا الشّعب الّذي ينتمي إلى هذه اللّغة.."، وجدير بنا الإشارة إلى أنّ "ترجمة النّظريات النّقدية، خاصّة الحداثيّة وما بعد الحداثيّة، تمثّل أعلى درجات التّحدي لقدرات المترجم لغويّا وذهنيا."

*02/التّرجمة ونقل المعنى:

لكلّ لغة من لغات العالم خصوصيّة تميّزها عن غيرها، من حيث نطق الحروف وعددها ومخارجها وصفات أصواتها، لذلك كانت المعاني الموجودة في لغة قد تختلف عن المعاني الموجودة في لغة أخرى، "فكثيرا ما يقف المترجم حائرا أمام إيجاد مرادف باللّغة العربيّة معبّرا ومواز تماما لمصطلح نقديّ

أجنبيّ...". ويلاحظ أنّ حركة تعريب الكتب الخاصّة بما بعد الحداثة "لم تنفع في إجلاء المفهوم أو إبعاده أو تاريخيته، لأنّ المترجمين والمراجعين اكتفوا بتعريب الكتب دون تمثّل هذا العمل التّعريفي والنّقدي اللاّزم، أو هم بعيدو الاهتمام عن هذا الفكر واشتغالاته،...".

أسهمت حركة ترجمة النّصوص والكتب النّقدية والمتعلّقة بالنّقد الجديد والاتّجاه الشّكلاني والبنيويّ عموما في إغناء المكتبة العربيّة، "ووضعت أمام الباحثين والدّارسين مجموعة هامّة من الأفكار والنّظريات والمنهجيّات النّقدية، الّتي كان لها تأثيرها الواضح على توجّهات النّقد العربيّ عموما والنّقد الرّوائي تحديدا". إلاّ أنّه يلاحظ؛ أنّ ترجمة المصطلح تختلف من ناقد إلى آخر بحسب اللّغة المترجم منها، ويؤكد هذا "عبد الله أبو هيف" في قوله: "تطوّر الاهتمام النّقدي العربيّ بهذه الاهتمامات بواسطة التّرجمة عن الفرنسيّة بالدّرجة الأولى، ولأعلامها الفرنسيّين بخاصة، وتأخّر الاهتمام بالنّتاجات الألمانيّة، والإيطاليّة، والأمريكيّة،.."

ولمّا كانت التّرجمة تعاني من مشاكل عدّة في خطابنا النّقدي الحديث، هناك من النّقاد من اعتبرها عمليّة سلبيّة، لا تقدّم حقيقة علميّة ووصفها "بأنّها إعادة صياغة وتقليد وفي كثير من الأحيان تشويه للأصل." إذن يمكن القول: أنّ النّاقد أو المترجم الّذي ليس متأكّدا من أدواته، قد ينقل لنا فكرا مضلّلا، لا فائدة مرجوّة من الاطّلاع على عمله، بل كيف ينقل المترجم عن لغة إذا كان صاحبها يقصد في الأصل الغموض واللّبس كما يؤّكد ذلك "دريدا" في قوله: "...وأعتبر أنّني أكتب حقّا حين أذهب في اللّغة إلى الحدود الّتي تصبح معها شبه (أقول شبه) عصّية على التّرجمة، هذه طريقة في عدم نسيان أنّنا نكتب دائما داخل لغة معيّنة."

***03*/إشكاليّة التّرجمة:**

قد تكمن إشكاليّة التّرجمة حينما يصبح العمل موجّها داخل النصّ، ويجد "القارئ أحيانا نفسه في حيرة من أمره وهو يقرأ الكتاب نفسه مترجما من قبل عدّة مترجمين حتّى يخيّل إليه أنّه يقرأ كتبا مختلفة وليس كتابا واحدا". ويرى "سعيد يقطين" و"فيصل درّاج" في كتابهما المشترك: "آفاق نقد عربيّ معاصر" أنّ التّرجمة "تلعب دورا محدودا وناقصا في الثّقافة العربيّة، فغياب المترجمين المختصّين في المجالات النّقدية، وتشابه الاهتمامات وغياب معاهد ومراكز خاصّة للتّرجمة العلميّة في البلاد العربيّة يدفع في اتّجاه كونها عمل أفراد."

لذلك تعجّب "عبد العزيز حمّودة" من ترجمة الخطاب النّقدي العربيّ المعاصر، إذ صرّح بقوله: "هالني ما قرأت من سوء الفهم وأخطاء النّقل وهالني أكثر الواقع الجديد واقع الجيل الثّاني من الحداثيّين العرب الّذين ابتعدوا أكثر وأكثر عن الأصول الغربيّة للحداثة، واعتمدوا أكثر على عمليّات نقل وترجمة غير دقيقة، وهكذا ابتعدوا عن حقيقة الحداثة...".

إنّ عدم فهم أصول فكر الآخر يؤدّي إلى تشويهه بدلا من الاستفادة منه، "وحين ينقل النّقاد مادة أدبيّة أو نقديّة من إحدى اللّغات الأوروبيّة ويدركون من خلال نقلهم أنّهم عاجزون عن فهم هذه المادّة الّتي قضوا في نقلها شهورا أو ربّما سنوات، فحين يدركون ذلك ويستمرّون في أداء مهمّتهم، فإنّنا لا نعتقد أنّهم يتذكّرون منها شيئا بعد إنجازها أو يشعرون أنّهم أضافوا شيئا جديدا إلى إطارهم الثّقافي الخاص أو العام، ولا يختلف الحال بالنّسبة للقارئ الّذي بذل جهدا من أجل الفهم، فالجهد الذّي بذله النّاقد في النّقل، والجهد الّذي بذله القارئ في القراءة يصبحان جهدين ضائعين، وكأنّ النّاقد لم ينقل شيئا، وكأنّ القارئ لم يقرأ شيئا، ويقع كلاهما في دائرة الاغتراب الفكريّ، نظرا لأنّ المادة المنقولة (أدبيّة أو نقديّة) لم تتوافر فيها عناصر التّفاعل العقليّ والنّفسي أو الثّقافي بالنّسبة للقارئ أو بالنّسبة للنّاقد ، لأنّها ترجمة ألفاظ وعبارات

وليست ترجمة معاني أو دلالات، ويزيد الشّرخ اتّساعا عند المثقّف العربيّ المهموم بواقعه الفكريّ واللّغوي "وهو يشاهد من حوله مثقّفين ومفكّرين يشعرون بدونيّة العقل العربيّ، فيرتمون في أحضان فكر الآخر وينقلون عنه في لغة ركيكة تؤكّد تلك الدّونية وتنشئها في آن."

ولعلّ هذا الوهم ما يضع المترجم أمام عجز عن قصور حسن فهم المعاني ثمّ بعد ذلك ترجمتها، "وبالنّسبة لترجمات الألسنيّة بالذّات هناك تشويه كبير جدّا كمثال على ذلك كتاب "ديسوسير"، "محاضرات عن الألسنيّة العامّة" مترجم إلى أربع ترجمات عربيّة، ثلاث منها رديئة رداءة حقيقيّة، الرّابعة قد تكون لا بأس بها أو مفيدة لكن هناك ثلاث ترجمات لهذا الكتاب رديئة ومضلّلة، ولن يخرج القارئ فيها بأيّ فائدة علميّة، بل بالعكس ستضلّله وتشوّه معرفته لها."

وقد يكون هذا التّشويه ناجما عن: عدم التزام الكثير من المترجمين واللّسانيين والمؤسّسات التّعليمية والأكاديميّة والثّقافية بالجهود المشتركة المثمرة في المجال، "ممّا أدّى إلى ظهور أكثر من مقابل ترجميّ للمصطلح الواحد وغياب ضوابط مشتركة وموحّدة في كيفيّة وضع المصطلح وترجمته وتعريبه". وقد يزيد الوضع قصورا؛ الضّعف البارز في تعميم هذه المصطلحات وإشاعتها ونشرها وتداولها "ضمن مجالات ضيّقة عبر دوريات ومنشورات محدودة التّداول. وعلى سبيل المثال لا الحصر، ما يلاحظ على مصطلح السّيميائية عدم اتّفاق الدّارسين العرب "على صياغة مصطلح محدّد لهذا المنهج الّذي تعدّدت أسماؤه عندهم، فجاء عند البعض "سيميولوجيا" وعند آخرين "سيميوطيقا" وعند فريق ثالث "سيميائية" وقد تجده تحت عنوان "الدلائليّة" وكلّها في تقديرنا، تسميّات لمسمّى واحد، وإنّما تعدّدت بسبب اختلاف المراجع والمصادر الأصليّة والمرجعيّات الثّقافية للدّارسين".

وليست المصطلحات فقط من تفقد رونقها أثناء التّرجمة، بل الشّعر أيضا، "والغالب أنّ الأعمال الشّعرية تفقد روعتها نتيجة التّرجمة، إلاّ أنّ البراعة والمهارة وبلوغ المستوى الإبداعيّ في التّرجمة، قد يجعل المقطع الشّعري أكثر جمالا في لغته الثّانية،...وقارن كيفما شئت بين الترجمات العربيّة للنصّ الواحد، فإنّك تجد الاختلاف واضحا بارزا..."

وبالرّغم من نعت الكثيرين للتّرجمة بالخائنة، إلاّ أنّها حسب البعض "خيانة جميلة من نوع ثان، وهي من الّذي ينطبق عليه-لا بدّ ممّا ليس منه بدّ- إذا كان من الصّعب جدّا، بل من المستحيل أن ينطق اللّسان الواحد بكلّ اللّغات". وفي الواقع تزوّدنا الدّراسات الأسلوبيّة المقارنة للّغات بوسيلة فعّالة لفحص الدّقة الأسلوبيّة في التّرجمة، "فالأسلوب لا يتجزّأ من المعنى الإجماليّ، وإذا كان هدف المترجم أن يجعل النّص يقرأ وكأنّه كتب أصلا باللّغة المنشودة، فعليه أن يقتضي بدقّة أنماط الأسلوب الّتي كان لزاما على الكاتب الأصليّ أن يستعملها لو كتب بهذه اللّغة المنشودة، وعاش أمدا في أحضان ثقافتنا."

ولقد تبيّن لنا أنّ الهيئات المعجميّة وهيئات التّعريب في الوطن العربيّ، "قد صرفت اهتمامها الأساسيّ لترجمة المصطلحات المتعلّقة بالعلوم الطّبيعية والتّطبيقية (الفيزياء، الكيمياء، الرّياضيات، الطّب،...) - وهو اتّجاه مشروع طبعا- ولم تول اهتماما جزئيا أو قانونيّا لترجمة المصطلحات اللّسانية والنّقدية، وظلّت الجهود الفردية للمترجمين واللّسانيين العرب هي السّائدة معظم هذا الوقت".

وغياب عمليّة التّنسيق والعمل المنظّم الموجّه على صعيد استثمار عمليّة التّرجمة في تحقيق التّواصل والتّفاعل، يجعل دورها يتقلّص بشكل كبير "ويطبع التّرجمات الموجودة حاليا بالكثير من التّكرار وقلّة الفائدة، وعندما نقارن عمليّة التّرجمة في اللّغة الإسبانيّة بنظيرتها العربيّة نلاحظ أنّ هناك بونا شاسعا بينهما، ففي اللّغة العربيّة نجد قلّة المواكبة وغياب التخصّص وندرة ما يترجم، وغياب المبادرات الطّليعية هي من أهمّ السّمات الّتي تطبع العلاقة مع هذا الوسيط".

***04*/إشكاليّة اللّغة والتّرجمة:**

ينبغي أن نشير إلى أنّ هناك فرق بين ترجمة مصطلحات العلوم الطّبيعية، وترجمة مصطلحات العلوم الإنسانيّة؛ الأولى معياريّة بالدّرجة الأولى، بينما الثّانية تخضع للسّياقات الاجتماعيّة والتّغيرات الّتي ترافق تشكّل بعض المصطلحات، وتظهر إشكاليتها أثناء ترحالها من سياق لغويّ إلى سياق لغويّ آخر، ولذلك عند هجرة المصطلح تظهر حزمة من الإشكالات المصطلحيّة ليس أقلّها وجود سلطة خفيّة يمارسها المصطلح على السّياق الثّقافي الجديد.

وإذا أردنا أن نؤرّخ للتّرجمة بشكل عام فيمكن اعتبار سبر الدكتور "طه عبد الرحمن" دقيقا لهذه المرحلة، حيث قسّم مراحل ترجمة المنقول إلى اللّغة العربيّة إلى ثلاث مراحل هي:

-طور ابتداء النّقل: ويقصد بالنّقل الابتدائيّ أو التّرجمة العربيّة الّتي وضعت لكلّ نصّ فلسفي يونانيّ، سواء كانت نقلا مباشرا من اللّغة اليونانيّة أم كانت نقلا بواسطة لغة أخرى.

-طور استصلاح النّقل: وهو يمثّل الطّور الثّاني من أطوار التّرجمة في حركة تنقيح المنقول الواسعة الّتي دخل فيها بعض المترجمين وبعض فلاسفة الإسلام، حيث قاموا بإصلاحها بما يتلاءم قدر الإمكان مع بعض مقتضيات التّداول الإسلاميّ العربيّ، اللّغوية والعقديّة، والمعرفيّة.

-طور استئناف النّقل: وهي الّتي بدأت مع مطلع القرن العشرين حيث أخذ المترجمون ينقلون الأعمال الفلسفيّة الّتي أنتجتها أوروبا ابتداء من عصر النّهضة إلى يومنا هذا، حيث ورثوا حصيلة من المصطلحات الدّقيقة فتمّ النّسج على منوالها ومحاكاة أساليبها، مستفيدين من تصوّرات أنشأتها الفلسفة الحديثة.

تجمع الترجمة بين نظامين لغويين متمايزين أو بين ثقافتين مختلفتين، ونظام معقّد من العلامات والسّياقات، وكلّ مصطلح يرتبط بمجموعة من التّجارب الخاصّة والسّياقات الاجتماعيّة والثّقافية المعقّدة الّتي لا يحلّ إشكالياتها النّقل اللّغوي المجرّد ونضرب هنا مثلا بمصطلحات النقد النسوي مثلا. وإذا أضفنا إلى هذه الصّعوبة صعوبة الإرث الحضاريّ الّذي يحمله المصطلح تزداد المسألة صعوبة وهو ما فسّره "المسيري" بقوله: "وذلك إن أردنا ترجمة المفهوم الكامن من وراء الكلمة لا الكلمة ذاتها فقط، وهذه إشكاليّة حقيقيّة تواجه المترجم العربيّ من اللّغات الأوروبيّة، حيث يتبدّى من خلال المفردات نموذج حضاريّ متكامل تعجز التّرجمة الحرفيّة عن نقله، بل إنّها تطمس معالمه أحيانا وتفصل المصطلح عن النّموذج الحضاريّ الكامن وراءه."

قد تعود هذه الإشكاليّة إلى تعدّد اللّغات المنقول منها كذلك؛ فالعرب لا ينقلون عن لغة واحدة، بل هناك أكثر من لغة منقول منها حيث يغلب على المشارقة النّقل من النّصوص الإنجليزية بينما يغلب على المغاربة النّقل من النّصوص الفرنسيّة، واختلاف اللّغة المترجم منها وغياب الجهود الجماعيّة للتّرجمة وتصدّر الجهود الفرديّة في نقل المصطلحات الغربيّة أدّى إلى تبعثر الدّلالات وتوسّع مفاهيمها وربّما ضياع الدّلالة الحقيقّية للمصطلح.

***05*/التّرجمة والعولمة:**

لا يعني الحديث السّابق أنّ التّرجمة ونقل المصطلحات عمليّة ضارة ثقافيا، بل إنّ النّقل بحدّ ذاته عمليّة مفيدة بشرط إدراك السّياقات الثّقافية والاجتماعيّة والاحتراز من تسرّب الدّلالات السّلبيّة، فتعريب المصطلحات ليس خيارا بل ضرورة، وليس خيار أمّة من الأمم أن تترجم أوّلا المصطلحات المتداولة ثقافيا أو سياسيا، فحالة العولمة الّتي يعيشها العالم تحسم الموضوع، ولذلك فترجمة المصطلحات لأمّة عاجزة عن توليد المصطلحات أصبح ضرورة في ظلّ سيل من المصطلحات المتدفّقة والعاملة في الحقل

الاجتماعيّ والسّياسي والثّقافي بدرجة كبيرة، حيث إنّ النّقل يتمّ به التّواصل الحضاريّ في كثير من المجالات المهمّة وهناك تقدّم على عدّة أصعدة كان وراء التّواصل بين الثّقافات والحضارات والّتي كانت وراء تطوّر المجتمعات.

مصادر ومراجع المحاضرة:

-صلاح فضل: مناهج النّقد المعاصر.

-سعيد يقطين: الأدب والمؤسّسة والسّلطة

-سعد البازعي: استقبال الآخر

- جورج مونان وآخرون: اللّسانيات والتّرجمة.